

سؤال الهوية والانتماء في رواية "وطن تاء العبور" لوردة زرقين

The Question of Identity and Belonging in Watan Taa El-Obour (Homeland of the Crossing "T") by Warda Zerguine

زليخة مدرك نارو^{1*}¹ جامعة عباس لغرور خنشلة، mederagnarou.zouleykha@univ-khenchela.dz

تاريخ النشر: 2025/12/27

تاريخ المراجعة: 2025/12/10

تاريخ الإيداع: 2025/10/01

ملخص:

تُشكل الهوية موضوعًا أساسيًا في الأدب الجزائري المعاصر، إذ تتشابك خيوطها مع ثقل التاريخ وتعقيدات السياسة وتنوع الثقافة، من خلال الرواية تحديدًا، يتجلى هذا الهمّ عبر استكشاف معاني الذات والانتماء، ومحاولة تصوير التوتر القائم بين الفرد وجماعته في مواجهة واقع متغيّر. من خلال رسم ملامح شخصياتها وأحداثها، تفتح الرواية أفقًا جديدًا لفهم الهوية، باعتبارها بناءً متحرّكًا يتجاوز الحدود التقليدية نحو رؤية أوسع وأكثر عمقًا. وفي هذا الإطار تبرز رواية "وطن تاء العبور" لوردة زرقين التي تعدّ نافذة لفهم تحولات المجتمع الجزائري عبر أبعاده التاريخية والثقافية والاجتماعية. فهي لا تكتفي بسرد الأحداث، بل تغوص في سؤال الهوية والانتماء وما يرتبط به من رموز ودلالات في ظل واقع معاصر مليء بالتحديات. ومن خلال شخصياتها وأحداثها، ترسم الرواية صورة عن الكفاح الوطني والموروث الثقافي والتغيرات الاجتماعية التي ساهمت في تشكيل الهوية الجزائرية. ويهدف البحث إلى تحليل معالجة الرواية لهذه القضايا وفهم دلالاتها للواقع الجزائري الراهن..

الكلمات المفتاحية: الهوية، الانتماء، وطن تاء العبور، الهوية التاريخية، الهوية الدينية.

Abstract: In contemporary Algerian literature, identity is not a marginal concern but a persistent theme that intersects with history, politics, and cultural diversity. The novel, in particular, has become a medium through which writers probe questions of selfhood and belonging, often exposing the tension between the individual and the community in the face of shifting realities. Rather than treating identity as fixed, fiction allows it to appear as a dynamic and evolving construct, one that stretches beyond familiar boundaries toward broader horizons. Seen from this perspective, *(Homeland of the Crossing "T")* by Warda Zerguine offers more than a narrative of events. It provides a window onto the transformations of Algerian society in its historical, cultural, and social dimensions. The novel engages directly with the question of identity and belonging, while also drawing attention to the symbols and meanings that in a maintain them in a challenging present. Through its characters and the conflicts they embody, it reflects national struggle, cultural heritage, and social change, all of which have contributed to shaping Algerian identity. The aim of this study is to examine how the novel addresses these issues and to consider what they reveal about Algeria today.

Keywords: Identity, Belonging, Watan Taa El-Obour, Historical Identity, Religious Identity

* المؤلف المراسل.

تمهيد

تعدُّ مسألة الهوية من الموضوعات المحورية في الأدب الجزائري المعاصر، حيثُ تتشابك في نسيجها تحديات التاريخ، السياسة، والثقافة التي فرضتها فترات الاستعمار، الحروب، والتحوّلات الاجتماعية. تتناول الرواية الجزائرية هذه القضية من خلال استكشاف مفاهيم الانتماء والذات، محاولةً التعبير عن تجارب فردية وجماعية تعكس صراعات الهوية في ظل مجتمع متغير ومتعدد الأبعاد. من خلال تجارب الشخصيات وأحداث الروايات، يُبنى فهم معقد ومتنوع للهوية، يتجاوز الانتماءات التقليدية نحو رؤية أكثر شمولاً وعمقاً.

في هذا الإطار، تُعتبر رواية "وطن تاء العُبور" لورددة زرقين نموذجاً بارزاً يُسلط الضوء على أشكالٍ متعددة من الانتماء والهوية، حيث تُواجه الشخصيات أسئلةً جوهريةً حول علاقتها بالنفس والآخر، بالمكان والتاريخ. ومع تقدم السرد، تتبلور إشكاليات مركزية تتعلق بالتداخل بين الهوية الفردية والجماعية، بين الذاكرة والواقع، وبين الرغبة في الانتماء والاغتراب.

وعليه، وفي ظلّ تعقيد مفهوم الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة، يبرز السؤال الرئيس وهو: كيف تعكس "وطن تاء العُبور" التوترات بين الانتماء المتعدد والتقاليد الاجتماعية؟ وما هو دور السرد في توضيف هذه التوترات لإعادة تشكيل الفهم الشخصي والوطني للهوية؟ وهل تمتلك الهوية مقاربة ثابتة؟ أم هي بناء متغير ومتطور تأثرت به عوامل متنوعة؟

أولاً / الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة

1. مفهوم الهوية:

أ - لغة:

تُشتق الهوية من الفعل "هَوَى، وَهَوَى بِالْفَتْحِ، يَهْوِي هَوِيًّا وَهَوِيَانًا وَانْهَوَى مِنْ فَوْقَ إِلَى أَسْفَلِ، وَأَهْوَاهُ هُو، يُقَالُ أَهْوَيْتُهُ إِذَا أَلْقَيْتَهُ مِنْ فَوْقِ"¹. بمعنى أوضح، أنّ مصدر كلمة "هوية" مشتق من فعل "هوى" الذي يحمل في طياته عدة دلالات ذات صلة بالسقوط والهبوط، كما ورد في معانيه اللغوية "انهوى من فوق إلى أسفل"، و"أهوى" بمعنى ألقى من فوق، وهذه المعاني تحمل إشارات قوية إلى حركة نزول أو هبوط تمكّن مناقشتها في سياقات لغوية وأدبية متعددة.

لغويًا، ظاهرة اشتقاق الكلمات التي تحمل دلالات حركة واتجاه معين مثل السقوط والانحدار، تُظهر كيف تتولد المعاني من الجذر اللغوي الواحد، لكن تحولاتها داخل السياقات اللغوية والثقافية تُنتج مفاهيم مجازية وعميقة. في حالة "الهوية"، قد نشير إلى أن الأصل الذي يدل على "هبوط" أو "سقوط" تم تجاوز معناه الحسي المباشر، ليصبح دلالة على الانتماء أو الذات التي تستقر أو تتحدد، كأنها "تهبط" إلى ذات ثابتة ومستقرة داخل الإنسان أو المجتمع.

أدبيًا، يمكننا النظر إلى الهوية كمفهوم يعبر عن "نقطة الاستقرار" أو "المكان الهابط" الذي يستقر فيه الفرد أو الجماعة، فهو الخيط الرابط بين الذات والتاريخ، بين الفرد وبيئته. عملية "الهبوط" هنا ليست بالضرورة السلبية أو الدنو، بل هي استعارة تعبر عن استقرار الذات في سياق معين، حيث تُستمد منها القيم، المعتقدات، والسمات المميزة.

علاوةً على ذلك، في تحليل اشتقاق الهوية من "هوى" يجد الباحث اتصالاً بين الحركة الجسدية والسقوط، وبين البعد المجازي لتكوين الذات أو اللغة. فالهوية ليست فقط امتداداً لغوياً، بل هي نتيجة حركة داخل الذات: سقوط في ذات معينة تحمل مكونات ذاتية وثقافية تجعل الفرد مميزاً.

من جهةٍ أخرى، هذه الاشتقاقات اللغوية تؤكد على عمق الترابط بين المفردات في اللغة العربية، حيث الكلمات تنبض بمعانٍ متعددة تجمع بين المادي والرمزي، وبين القديم والحديث، ما يُثري المناقشات الأدبية واللسانية حول مفهوم الهوية.

ب - اصطلاحاً:

أما في المفهوم الاصطلاحي، فيُشار للهوية بأنها كالبصمة بالنسبة للإنسان إذ هي التي تُميزه عن غيره.² بهذا إذن، تُفهم الهوية بوصفها مجموعة من الصفات، الخصائص، والمميزات التي تجعل الفرد أو الجماعة فريدة ومميزة. تشبيه الهوية بالبصمة هنا ليس تشبيهاً عابراً، بل يحمل دلالة عميقة تجسد خصوصية الإنسان أو الجماعة، إذ كما لا توجد بصمتان متطابقتان في العالم، كذلك لا توجد هويتان متطابقتان تماماً، حتى ولو كانت ضمن نفس البيئة أو الثقافة.

من جهة علمية وأدبية، البصمة تمثل أثراً شخصياً فريداً، ترابط هذه الصورة بمفهوم الهوية يكشف عن أن الهوية ليست مجموعة بيانات عامة أو ثابتة فقط، بل هي عنصر تعريفي ينبثق من سلسلة متشابكة من التجارب الحياتية، الخلفية الثقافية، التوجهات الفكرية، والتفاعلات الاجتماعية، التي تجمع لتشكيل هيكلًا معرفيًا واجتماعيًا مميزاً.

وبهذا المعنى، الهوية تعمل كمرآة تعكس خصوصية الفرد وجماهيرته، فهي تحدد ملامح التفرد وتسمح بالتمييز ما بين "الذات" و"الآخر". هذا التصور يمثل جوهر الدراسات الاجتماعية والإنسانية التي تؤكد على أهمية احترام التنوع والاختلاف، وضرورة فهم الهوية بفلسفة تستوعب تعدد الأبعاد النفسية، الثقافية، والاجتماعية.

وفي هذا الصدد، تأتي الهوية لتكون موضوعاً مركزياً في تشكيل النصوص، فالكُتّاب يعبرون عن تجاربهم الذاتية أو الجماعية مستخدمين الهوية كأداة لسرد الذات، وبناء الشخصيات، واستكشاف العلاقات الإنسانية، مما يضفي عمقاً ومصداقية على الإنتاج الأدبي.

ومما لا ريب فيه أنّ "الهوية ليست ثابتة ولكنها تتّصف بديناميكية تبرز عندما تُستخدم"³. تعكس هذه الفكرة رؤية معاصرة للهوية تفصل بين فهم الهوية كشيء ثابت وجوهري، وبين رؤيتها كشيء متغير ومتشكل من خلال التفاعلات والممارسات الاجتماعية. أي بمعنى أنّ الهوية تُفهم كعملية مستمرة وليس كحالة ثابتة. هذا يعني أنّ الهوية تتطور وتتغير بمرور الوقت، متأثرة بتجربتنا الشخصية، نمونا النفسي، تغير الظروف الاجتماعية والثقافية، والتفاعلات مع الآخرين. ومن زاويةٍ أخرى؛ الهوية لا تتجلى في العزلة؛ بل تأتي إلى الوجود وتُعرف من خلال التفاعل مع الآخرين والمشاركة في الممارسات الثقافية والاجتماعية. على سبيل المثال، الطريقة التي نعرف بها أنفسنا أو نُعرف من قبل الآخرين في مواقف مختلفة (كهنّي، كصديق، كعضو في ثقافة معينة) تُظهر كيف أنّ الهوية تتشكل وتتغير بناءً على السياق.

باختصار هذا المفهوم يعزز فكرة أن الهوية لا توجد في فراغ ولا تُعطى مسبقاً؛ بل هي تتشكل، وتُختبر، وتُعاد صياغتها من خلال العلاقات الديناميكية مع العالم المحيط والسياقات التي نعمل ضمنها. الهوية إذن هي شيء نقوم بصنعه وإعادة صنعه من خلال كيفية تفاعلنا ومشاركتنا في العالم، وليست شيئاً ثابتاً يمكن تحديده مرة واحدة وإلى الأبد .

ويرى فريدريك بارث أن "الهوية هي ذلك النظام الذي يتكوّن من نسيج الوضعية العلائقية بل هو من تجلياتها"⁴. فريدريك بارث من خلال نظريته للهوية، يقدم تصوراً يرى فيه الهوية كنتاج ديناميكي للعلاقات الاجتماعية القائمة بين الأفراد والجماعات. فهو يؤكّد على أن الهوية ليست مجموعة من الصفات الثابتة التي يمتلكها الفرد أو الجماعة، وإنما هي نظام متحرك يتشكل من خلال الوضعية العلائقية، أي من خلال السياقات المتغيرة للعلاقات الإنسانية. بمعنى آخر، الهوية تبرز من خلال التفاعلات، وهي تُعرف وتُفهم في مقابلة مستمرة وفي تمايز مع الآخرين. بهذا المعنى، فإن الهوية تعكس التجاذبات والتناقضات النابعة من حيثيات التفاعل الاجتماعي، وكسلوك حيّ يتجلّى في الفعل والتطبيق وليس مجرد سمة جامدة. لذا وفقاً لبارث فالهويّات متفلّنة؛ تتطور وتغتني بينما تتأثر بالتفاعلات اليومية وتبادل العلاقات التي تُقام بين الجماعات الاجتماعية المختلفة.

2. الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة:

مما لا ريب فيه، أن "الرواية الجزائرية المعاصرة تهتمّ بمسألة الهوية التي تُشكّل خصوصيتها الأساسية، لتعكس من خلال مُعالجتها لهذه المسألة تساؤلات الفرد الجزائري عن العلاقة التي تربطه بأرضه وبدينه وبلغته، فهو إن وُلد على هذه الأرض وتأسست جذوره فيها إلا أنه يعيش انفصاًلاً إجبارياً عنها."⁵ حيث تحتلّ مسألة الهوية مكانة محورية في الرواية الجزائرية المعاصرة، لما تنطوي عليه من تعقيدات مُتجذّرة في التجربة التاريخية والاجتماعية والسياسية للجزائر. يظهر هذا الاهتمام العميق في كيفية تجسيد الرواية لتداخل وعلاقة الفرد الجزائري بأرضه، دينه، ولغته، التي تشكل الركائز الأساسية لهويته. مع ذلك، تعكس هذه الأعمال حالة الانفصال الإجباري التي يعاني منها الفرد، حيث تولد جذوره في الأرض نفسها التي ينحدر منها لكنه يظل في مواجهة مع فراغ وجودي يظهر في انفصال عن هموم وممارسات هذه الأرض، بسبب تداخل عوامل الماضي الاستعماري، والتغيرات الاجتماعية والسياسية، والثقافية التي أدت إلى حالة من الاغتراب الداخلي .

هذا الانفصال الإجباري لا يعبر فقط عن بعد جغرافي أو سياسي، بل هو أيضاً تمزق نفسي وروحي، حيث يطرح الروائي سؤال "كيف يمكن للإنسان أن يكون منتمياً لشيء ينبض به ويتحرك من خلاله، وفي الوقت نفسه يشعر بأنه غريب عنه؟" لذا، تعالج الرواية هذه الحالات من خلال تجارب شخصية لشخصياتها، لتقدّم رؤية نقدية للهوية التي ليست ثابتة أو محددة، بل هي نتاج صراعات وتأرجحات مستمرة تسعى لتوحيد الذات في إطار متعدد الأبعاد والاجتهادات .

لهذا، تظهر الرواية الجزائرية المعاصرة كفضاء نقدي يتناول الهوية ليس كخاصية ثابتة تلزم الفرد، بل كمسألة مفتوحة تتخللها الانقسامات والتوترات التي تعكس واقع الفرد الجزائري بين الانتماء الموروث والبحث عن الذات وسط متغيرات مُتسارعة.

ثانيًا / سؤال الهوية والانتماء في رواية "وطن تاء العبور" لوردة زرقين

1. نبذة عن حياة وردة زرقين :

وردة زرقين هي كاتبة وصحفية جزائرية بارزة، ولدت في مدينة قلمة شرق الجزائر. تعرف بجهودها الكبيرة في جمع وتوثيق التراث الشفوي الشعبي الجزائري ، وهي من الروائيات اللواتي نجحن من خلال إبداعاتهم الأدبية، اسمها (وريدة في جواز السفر) من ولاية قلمة، ذات جنسية جزائرية، وهي جامعية، تعمل وردة زرقين إعلامية (جريدة "المساء" الوطنية اليومية)، وصاحبة الموقع الإلكتروني "العنقاء للثقافة والسياحة"، وقد شغلت سابقا إطار في مؤسسة "الجزائرية للمياه" وحدة قلمة، بدأ شغفها بالتراث الشعبي منذ صغرها، حيث كانت تجالس كبار السن للاستماع إلى الأمثال والحكايات الشعبية، مما دفعها لاحقا إلى تدوين هذا التراث في كتب ومؤلفات من إصداراتها:

- رواية "وطن تاء العبور" عن دار خيال للنشر والترجمة في سبتمبر 2023

- مجموعة قصصية "ذات الفلجتين" عن دار الأوطان في سنة 2021

المطبعة في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية في سنة 2015

- "جواهر": أمثال شعبية – بوقالات – ألغاز شعبية (الجزء الثاني) عن دار الماهر سنة 2018.⁶

2.1 رؤية عامة للرواية

رواية "وطن تاء العبور" تسرد، في إطارها الزمني المتقلب بين فترات مختلفة من التاريخ الجزائري، قصة شخصية وعميقة تعكس بدورها جانبًا من الواقع الاجتماعي والسياسي المفعم بالتحديات التي مرت بها البلاد. تدور أحداث الرواية حول شخصية "رفيقة"، فتاة عادية عاشت معاناة مركبة على أكثر من مستوى، بدايةً من واقعها الاجتماعي المحدود الذي تزامن والتغيرات السياسية الحادة التي شهدتها الجزائر خلال حقبة تتسم بالاضطرابات والاضطرابات الإرهابية، وانتهاءً بحياتها الشخصية التي تداخلت فيها مآسي الأقدار مع قصص الحب والفقد والتحدي.

من الناحية الاجتماعية، تمثل شخصية رفيقة نموذجًا للمرأة الجزائرية التي تعيش بين تقاليد المجتمع الذي يقيدها وطموحاتها الشخصية التي لا تجد لها مكانًا واضحًا في مواجهة طبقات اجتماعية أخرى أكثر رفاهية وتعليمًا، كما هو حال علي، الشاب الغني المتعلم الذي أحبها. وهو تباين الطبقات ومستوى التعليم هنا يشكّلان عنصراً محورياً في الرواية، إذ يعكسان الانقسامات العميقة التي تميز المجتمع الجزائري، حيث يتم تقييم الفرد بناءً على مستواه التعليمي والاجتماعي وليس على عواطفه أو شخصيته.

الحُب بين رفيقة وعلي، رغم ما واجهه من صعوبات وعراقيل سياسية وأمنية، لا يقتصر على كونه علاقة عشقٍ شخصية فقط، بل يعتمد عليهما كنوع من مواجهة لمصير وظروف قاسية فرضتها الأوضاع الإقليمية، مما يُضفي بعداً رمزياً على العلاقة، فالانتظار والتباعد بسبب الاغتيالات والأحداث الأمنية تُعزز مشاعر الحرمان والانفصال، لكنها في الوقت ذاته تشكل قوة داخلية تحفز العشق بين الحبيبين.

في صراعها مع واقع رفض أسرة على لخطبتها، نلمس بوضوح البنية المحافظة التي لا تعترف بالحب كقيمة كافية للزواج، بل تشترط المقاييس التقليدية كالتحصيل العلمي والطبقي، ما يدلّ على كيف أنّ العلاقات الإنسانية في المجتمع الجزائري غالباً ما تُقيد بأطر اجتماعية جامدة.

وبعد فراق علي، تدخل رفيقة في حياة أخرى، حياةً بسيطة مع رجلٍ يحبها، لكنّها لا تسلم من لعنات الفقد، سواء في عقمها الذي يحرمها من الحمل، أو وفاة والدتها التي تمثل الفقد النفسي العميق، كما تواجه أزمات جديدة تتمثل في الصراعات العائلية، خصوصاً مع أخت زوجها، والأكثر تعقيداً مع معاناتها من السّحر، الذي يضيف طبقة أخرى من التعقيد لما تعيشه، ويكشف عن عمق الاعتقادات الشّعبية وتأثيرها على حياة الأفراد في المجتمع، وتؤكد أنّ الألم والمعاناة ليست فقط من الخارج بل من الداخل أيضاً.

تكشف الرواية من خلال هذه الأحداث كيف تتشابك الحياة الشخصية بالواقع الاجتماعي والسياسي، وكيف تظلّ المرأة الجزائرية، ممثلة في شخصية رفيقة، مكبلة بين قيود المجتمع والتقاليد، وبين رغبتها في نيل حقوقها ومستقبل أفضل. كما تُبرز الرواية الأبعاد النفسية والاجتماعية التي تتلاقى في مشهد متكامل يعكس صراع الإنسان الجزائري بين أعباء الماضي ومتطلبات الحاضر في مجتمع لا يزال يعاني من ترسبات الماضي، ممّا يجعل "وطن تاء العبور" ليست مجرد رواية عاطفية، بل دراسة نقدية مُتمعنة في واقع الإنسان الجزائري وأوضاعه.

بذلك إذن، رواية "وطن تاء العبور" ليست مجرد رواية وطنية عادية، بل هي محاولة فلسفية وأدبية عميقة لفهم الشخصية الجزائرية وهويتها المتعددة الأبعاد، فمن خلال استعراض ذكيّ لمسارات وتحولات تاريخية واجتماعية وثقافية فراها وطننا منذ عقود، وصولاً إلى الحراك الشعبي المبارك الذي شكّل نقطة تحوّل جوهريّة في تاريخ الجزائر الحديث.

من الناحية التاريخية، تُقدّم الرواية توثيقاً دقيقاً لمرحلة حساسة في الجزائر، حيثُ تتداخل الأحداث المحلية مع تحولات دولية خاصة في العالم العربي، ممّا يضفي على السرد عمقاً دولياً يبرز تعقيدات السياسة والهوية في المنطقة. ولم تكتفِ الرواية بالطرح السطحي، بل تنقب في سرديات القوة والصراع التي شكلت المشهد الوطني، مستعرضة كيف تفاعل الفرد والمجتمع مع هذه التحولات الكبرى وتأثر بها، وهو ما يضفي على العمل بعداً تحليلياً نقدياً للتاريخ لا مجرد استرجاع أحداث.

أمّا من الناحية الثقافية، فقد نجحت الرواية في إبراز ثراء وتنوع الموروث الجزائري، المادي وغير المادي، عبر تسليط الضوء على المناطق التي تمثل نبض الجزائر الحقيقي مثل قالملة، وغرداية، ومستغانم، والقالمة، وقسنطينة. هذا التفصيل في عرض الثقافات المحلية يمد الرواية بحيوية وصدق، حيث لا تُعرض الهوية ككيان موحد بسيط، بل كنسيج معقد من التقاليد والعادات، ما يكشف الصراعات الداخلية بين الأصالة والحداثة، ويواصل بناء إحساس بالانتماء والتنوع.

الجانب الاجتماعي في الرواية يعكس نبض الحياة اليومية للأسر الجزائرية، بكل تحدياتها وأملها، حيث تتشابك مآسي الفقر والتمهيش مع لحظات التسامح والتضامن والوفاء. وهنا تظهر الرواية براعتها في إظهار التوترات والتناقضات التي تعيشها الجزائر، إذ لا تصوّر المجتمع كشكل مثالي، بل ككيان حيّ يتنفس، يعاني ويقاوم، مستنداً إلى قيم متجذرة كالصدق والإخلاص، مع الالتزام القيمي تجاه الدين الإسلامي الحنيف، الذي يُعرض كمرجعية حقيقية تساهم في تعزيز الوئام الاجتماعي.

هذه الرؤية المتعددة الأبعاد في الرواية تجعلها أكثر من مجرد سرد قصصي؛ إنها تأمل نقدي في مفاهيم الهوية الوطنية، في العوامل التي تحدد حاضر الجزائر ومستقبلها، وتطرح أسئلة هامة حول مكان الفرد داخل الجماعة وكيف تتشكل الرؤية الوطنية في ضوء التغيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية المستمرة.

باختصار، "وطن تاء العبور" عمل متكامل يتسم بنضج فكري وأدبي يستحق القراءة، إذ يقدم للمتلقي رؤية عميقة ومركبة للجزائر التي، رغم كل محنها، تحتفظ بأملها في عبور تسعة التاء نحو وطن أكثر حرية وعدل.

2-2/- سؤال الهوية والانتماء في رواية "وطن تاء العبور" لوردة زرقين

تُعَدُّ الرواية من أبرز الأجناس الأدبية القادرة على التعبير عن عمق التجارب الإنسانية وتعقيدات الهوية الوطنية والشخصية في آن واحد.

وفي هذا الإطار، تبرز رواية "وطن تاء العبور" للكاتبة والصحفية وردة زرقين، كعملٍ روائي وطني يشكل نافذة فريدة لفهم تحولات المجتمع الجزائري عبر فصوله التاريخية، الثقافية والاجتماعية.

إذ لا تكتفي الرواية بسرد الأحداث، وإنما تتعمق في استكشاف سؤال الهوية والانتماء بكل ما تحمله هذه المفاهيم من رموز ودلالات، في سياق واقع معاصر يشهد كذلك تحديات كبيرة. فمن خلال تجسيد شخصياتها ورصد يومياتها، تقدم الرواية رؤية شاملة عن الكفاح الوطني، الموروث الثقافي، والتغيرات الاجتماعية التي ساهمت في تشكيل نسيج الهوية الجزائرية. هذا البحث يسعى إلى تحليل أبعاد هذا السؤال المحوري في الرواية، لاستشراف كيف تمت معالجة الهوية والانتماء في سياق الرواية وماذا تعني هذه القيم للواقع الجزائري الراهن.

أ. الهوية التاريخية:

تستعرض الرواية مراحل تاريخية ساهمت في تشكيل الشخصية الجزائرية عبر الزمن، وتوثيق التحولات الاجتماعية والسياسية خاصة تأثير العشرية الدموية السوداء. حيث كانت أحداث الرواية تدور في تلك الفترة التي عرفت فيها بالبلاد بالاضطراب الشديد منذ أزمة البترول التي عرفت البلاد وصولاً إلى مرحلة الإرهاب وسفك الدماء وتجسد ذلك في الرواية، في عدة مرات.

في مطلع الرواية تقول الكاتبة: " في هذه الأثناء .. سمعت رفيقة هتافات من الخارج .. نهضت مسرعةً وفتحت النافذة .. فئاتٌ من مختلف شرائح المجتمع حاملين شعارات ويهتفون مطالبين بإصلاحات اجتماعية وسياسية واقتصادية بعد أن دخلت الجزائر في أزمة اقتصادية عقب الأزمة البترولية سنة 1986 م⁷ ". الهوية التاريخية هنا تتجلى من خلال ذكر الأزمة الاقتصادية التي نشأت عقب أزمة البترول عام 1986م، وهي نقطة مفصلية في تاريخ الجزائر الحديث.

هذا التاريخ لا يشكل فقط خلفية زمنية بل يتداخل مع ذاكرة المجتمع الجزائري، حيث تمثل هذه المرحلة لحظة انعطاف حاسمة أثرت على الواقع السياسي والاجتماعي، وما تبعها من أحداث مثل العشرية الدموية. فأحداث الرواية تستحضر هذه المحطات التاريخية كي تعكس كيف أعيد تشكيل الهوية الوطنية في ظل التحديات الاقتصادية والسياسية.

أما الانتماء، فيتجسّد في حضور فئات مختلفة من المجتمع وهي تتوحّد حول مطالب اجتماعية وسياسية واقتصادية مشتركة، مما يدل على شعور جماعي بالمصير المشترك والانخراط في مشروع يهدف إلى الإصلاح والتغيير.

هذه الوحدة بين الفئات المختلفة تُبرز شعورًا عميقًا بالانتماء للوطن والرغبة في الدفاع عن حقوقه ومستقبله، رغم التحديات التي تواجهه.

باختصار، المقطع يصور كيف أنّ الهوية التاريخية المتأثرة بالأزمات والتجارب المشتركة، تقود إلى تكوين انتماء شعبي يعبر عن تطلّعات الجماعة الوطنية في مواجهة المحن.

وكذلك عندما تحدّث محمد مع صالح عن حادثة إطلاق النار التي حدثت في سجن سرڪاي، نستشفّ استحضارًا للهوية التاريخية، في قول صالح: يا حسراااه على سرڪاي .. على بالك .. هذا الحبس كتب فيه الشّاعر الكبير مُفدي زكريّا النشيد الوطني "قسّمًا" كان معروف الحبس باسم برباروس⁸. فحادثة محمد مع صالح حول حادثة إطلاق النار في سجن سرڪاي تحمل دلالات مهمة تعكس استحضار الهوية التاريخية بعمق. العلة في استحضار الهوية التاريخية هنا تتلخص في الربط بين المكان والتاريخ الوطني؛ فسجن سرڪاي (المعروف أيضًا باسم برباروس) ليس مكانًا عاديًا، بل هو رمز للنضال الوطني، حيث كتب فيه شاعر الوطنية الكبرى مُفدي زكريّا النشيد الوطني الذي يُعبّر عن العزة والكرامة الوطنية. هذا يبرز عمق الهوية التاريخية المرتبطة بالأمكنة التي شهدت مراحل مقاومة وكفاح الشعب الجزائري ضد الاستعمار والعنف.

من جهته، الحديث عن النشيد الوطني يعزز الإحساس بالانتماء الوطني، باعتباره رمزًا يجمع الجزائريين حول هويتهم المشتركة، ويربطهم بجذورهم التاريخية والثقافية.

وكلمة "يا حسراه" تعكس الحزن على التغيرات التي طرأت على سجن سرڪاي، من مكان يحمل معاني البطولة والوحدة الوطنية إلى موقع لأحداث مأساوية مثل حادثة إطلاق النار، مما يعكس صراعات ومآسي متجددة يمر بها الوطن.

بالتالي، تستحضر الرواية الهوية التاريخية من خلال توظيف أماكن تحمل حمولة رمزية غنية، وتعيد بذلك بناء الذاكرة الجمعية التي تشكل هوية الانتماء الوطنية.

ب. الهوية الثقافية:

تتمظهر الهوية الثقافية في هذه الرواية من خلال تسليط الضوء على الموروث الثقافي الجزائري في الرواية، سواء المادي كالطُّقوس والعادات، أو غير المادي كاللُّغة والتقاليد والقصص الشعبية، وتأثير ذلك على تشكيل شعور الانتماء مثال على ذلك، قول الراويّة: "كان الأهل مجتمعين في الصّالة بيّيت فاطمة .. يتبادلون أطراف الحديث ويتابعون برامج التّلفزة الجزائرية .. أمامهم صينية القهوة مُزينة بحلويات تقليدية من مقروض المقلة المشحر بالعسل الذي أحضرته فريدة .. والبقلاوة التي أحضرتها زهرة معها إلى جانب دقلة نور. كانت العائلة تتابع ريبورتاجًا حول التاريخ العريق والثقافة الأصيلة مُستغنام .. المواقع الثقافية والتاريخية والروايات التي تزخر بها".⁹ ويظهر هذا المشهد كيف تُجسّد الحياة اليومية للجزائريين الموروث الثقافي الذي يتوارثه الجيل بعد الجيل، من خلال الطقوس الاجتماعية مثل تجمع العائلة في صالة البيت، وتبادل الحديث، ومتابعة البرامج التلفزيونية التي تسلط الضوء على التاريخ والثقافة الوطنية. وجود صينية القهوة المزينة بحلويات تقليدية مثل

المقروض المشحر بالعسل، والبقلاوة، وغيرها من المكونات، لا يكتفي بإبراز الطابع المادي للثقافة بل يحمل رموزًا ترتبط بالضيافة والكرم الذي يميز المجتمع الجزائري، ما يعزز الروابط الاجتماعية والأسرية. كما يُشير إلى الاهتمام بالتراث الثقافي والتاريخي من خلال ريبورتاج عن مستغانم — وهي المدينة ذات الأهمية التاريخية والثقافية — ما يرسخ الانتماء إلى الأرض والجذور، ويحفز الوعي بالهوية الوطنية الأصيلة. بالتالي، فإن المشهد يمثل مُجمل الترابط بين الماضي والحاضر، بين الفرد والمجتمع، ويعكس الدور الحاسم للثقافة في صياغة الهوية وتثبيت الانتماء، حيث يتفاعل أفراد العائلة مع تراثهم ولا يكتفون بحفظه بل يُحيونه يوميًا في تفاصيل حياتهم.

ج. الهوية الدينية والاجتماعية:

ويتجلى ذلك، في كيفية تصوّر الرواية للحياة اليومية للأسرة والمجتمع الجزائري المسلم، والقيم الاجتماعية والدينية التي تكرر شعور الوحدة الوطنية والولاء للأرض والناس.

وتجسد ذلك في العرس الذي أقامه وحيد ورفيقة لختان ابنهما بسّام: "اتّفق الزّوجان أن يكون عرس ختان بسام في ليلة الحنة .. دعا وحيد ورفيقة جميع الأقارب. والأحباب والجيران والأصدقاء في هذه الليلة السعيدة."¹⁰ يُجسد عرس ختان بسّام في ليلة الحنة نموذجًا حيًا للتقاليد الاجتماعية والدينية التي ترسخ الانتماء الجماعي والهوية المشتركة في المجتمع الجزائري المسلم. فالختان هو طقس ديني إسلامي مهم يُكرّس الانتماء إلى العقيدة الإسلامية ويعمل كعلامة معرفية للدخول في صفوف المسلمين. احتفال العائلة بهذه المناسبة، في نفس الليلة التي يشهد فيها التقليد الشعبي "ليلة الحنة"، يربط بين البُعدين الديني والثقافي، ما يُعزّز من الشعور بالهوية الموروثة.

من الناحية الاجتماعية، يتضح من خلال دعوة جميع الأقارب والأحباب والجيران والأصدقاء أهمية الروابط الجماعية والتضامن التي تُحيط بالفرد. فهذه الممارسات تدل على مجتمع متماسك يحتفي بالمناسبات الجماعية، ما يؤكد على التداخل بين العلاقات الأسرية الممتدة والعلاقات المجتمعية الواسعة.

الانتماء الديني والاجتماعي هنا يتجسد في التفاعل المشترك والاحتفال الجماعي الذي يحقق مشاركة الفرح، ويُنشئ روابط أخلاقية واجتماعية تعزز الولاء للأرض وللأشخاص، وتُعبّر عن صورة حيّة عن التكاثر المجتمعي والديني كأساسٍ لهوية الشعب. مع اقتراب الاحتفال بالمولد النبوي الشريف... أرسل وحيد ابنه بسّام إلى رفيقة لإخبارها أنّه يرغب في الاشتراك في عملية لوزيعة أو بما يعرف النفقة مع جيرانه الذين أبلغوه بذلك¹¹ وفي قول بسّام لوالده وحيد:

- بسام: أوّل مرّة نحضر لوزيعة.. عجبتي بزّااف .. بصح قل لي بابا .. وعلاش يديروها ؟ _وحيد: هاذي عادة تعنا .. نديروها باش يكون التعاون والمحبة .. ونتمسكوت بتعليمات الدين الحنيف اللي وصّانا باش نعانوا

المحتاج¹²

في هذا الحوار، تعبّر "لوزيعة" (التقاسم أو التوزيع) عن قيمة اجتماعية دينية راسخة، تتمثل في التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع. فعندما أعجب بسّام بهذه العادة وسأل عنها، أجابه والده بأن الهدف منها هو تعزيز التعاون والمحبة، وهما قيمتان أساسيتان في تعاليم الدين الحنيف، الذي يؤكد على مساعدة المحتاجين ودعم المجتمع.

الانتماء هنا يتجسد في اتباع هذه التعليمات الدينية التي تربط الفرد بمجتمعه عبر مبدأ العمل الجماعي والتآزر، فبدلاً من العائلة الصغيرة (وحيد وبسام) إلى الجماعة الأكبر (الأقارب والجيران)، يتم بناء علاقات أخلاقية واجتماعية تقوم على المشاركة والتعاقد.

تبرز هذه الهوية الدينية والاجتماعية بوضوح توازناً قائماً بين الالتزام الديني والقيم الجماعية، حيث تؤدي دوراً أساسياً في تقوية روابط الانتماء وتعميق الصلة بين الأرض والمجتمع، كما تساهم في تشكيل وعي جماعي يحافظ على تماسك الهوية الوطنية ويعزز اللحمة الاجتماعية أمام التحولات المختلفة.

خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية، نستشف أن رواية "وطن تاء العبور" لوردة زرقين تمثل مرآة حيّة للتوترات التي تعيشها الهوية الجزائرية بين الانتماءات المتعددة والتقاليد الاجتماعية المتنوعة، حيث تعكس الرواية عبر سردها المتشابك حياة فردية وجماعية تعايش بين الموروث الثقافي والتحديات المعاصرة.

وفي الأخير توصلنا إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

- تستثمر الرواية السرد كأداة فنية بارعة لإظهار الصراعات الداخلية والخارجية لتعيد بذلك تشكيل رؤية الفرد والمجتمع للهوية بمفهومها الشامل ويحفز القارئ على التأمل في مختلف أبعاد الذات والانتماء.
- الهوية ليست كيانا ثابتاً بل مسار متغير يتأثر بالعوامل السياسية والاجتماعية والدينية والتاريخية يعكس تحولات وصراعات المجتمعات خاصة في الجزائر.
- تبرز الرواية حياة الأسرة والمجتمع الجزائري المسلم والقيم الاجتماعية الدينية التي تعزز الوحدة الوطنية والانتماء للأرض والمجتمع.
- تعيد الرواية بناء الهوية التاريخية عبر أماكن ذات رمزية مما يعزز تشكيل الذاكرة الجماعية والانتماء الوطني.
- تجسد الرواية الدينامية بانسجام عميق فتتحول إلى وثيقة أدبية تربط بين الماضي والحاضر وتستشرف مستقبل الهوية الجزائرية.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن منظور: لسان العرب، (مادة هو ي) دار صادر، بيروت - لبنان.
2. محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط1، 1999م
3. شريفة بريجة: مفهوم الهوية، النشأة والتطور في تاريخ أوروبا الحديث مقارنة سوسيو- أنثربولوجية، مجلة أنثربولوجيا، المجلد 7 العدد 2 السنة 2021
4. فتيحة شفييري: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية وجمالياتها الفنية، دراسات أدبية، العلامى، العدد 04 / جوان 2017 م
5. وردة زرقين: رواية وطن تاء العبور، دار خيال للنشر والترجمة، ط1، الجزائر، 2004 م
- 6.

الهوامش:

- ¹ ابن منظور: لسان العرب، مادة (هوى) دار صادر، بيروت _ لبنان. ص 115.
- ² يُنظر، محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة _ مصر، ط 1 ، 1999م، ص 06.
- ³ شريفة بريجة: مفهوم الهوية، النشأة والتطور في تاريخ أوروبا الحديث مقارنة سوسيو- أنثربولوجية ، مجلة أنثربولوجيا ، الجلد 7 العدد 2 السنة 2021 ، ص 130.
- ⁴ المرجع نفسه، ص 131.
- ⁵ فتيحة شفييري: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية وجماليّتها الفنية، دراسات أدبية، العلامى، العدد 04 / جوان 2017 م، ص 411.
- ⁶ حوار مع الروائية وردة زرقين، يوم 20/07/2025 ، على الساعة 10:57.
- ⁷ وردة زرقين: رواية وطن تاء العُبور، دار خيال للنشر والترجمة، ط 1، الجزائر ، 2004م، ص 02.
- ⁸ المصدر نفسه، ص 57.
- ⁹ المصدر نفسه ، ص 37.
- ¹⁰ المصدر نفسه ، ص 71.
- ¹¹ المصدر نفسه، ص 102.
- ¹² المصدر نفسه ، ص 103.